

المحنة في واقع الحركة الإسلامية المعاصرة

تأليف

د.يوسف القرضاوي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله العلي الكبير، الذي {**يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ**} [التغابن: 1]، والصلاة والسلام على خاتم رسله، البشير النذير، والسراج المنير، سيدنا وإمامنا وأسوتنا وحبيبنا ومعلمنا محمد، وعلى آله وصحبه، ومَن اهتدى بسنته، وقام بنشر دعوته، وجاهد جهاده إلى يوم الدين.

أما بعد ...

فهذه محاضرة ألقيتها في أمريكا الشمالية، في إحدى مدنها، وفي المؤتمر السنوي لرابطة الشباب المسلم العربي «ألمايا» كما يعبرون عنها اختصارًا.

وكنت منذ أواسط أو أوائل السبعينات من القرن العشرين حريصًا على زيارة المسلمين في أمريكا، وخصوصًا «اتِّحاد الطلبة المسلمين» الذي يرمزون له (M.S.A)، والذي أمست له فروع في كل أنحاء أمريكا، شرقًا وغربًا، وشمالًا وجنوبًا.

والذي أنشأ عدة مؤسسات كبيرة انبثقت عنه، وأصبح لها وجودها المستقل، وأثرها في الحياة والمجتمع، منها: جمعية الأطباء المسلمين، وجمعية العلماء والمهندسين المسلمين، وجمعية علماء الاجتماع المسلمين، وهيئة الوقف الإسلامي، وغيرها.

وكان اتحاد الطلبة المسلمين كاسمه، يضم العرب وغير العرب ممن

يقيمون في أمريكا، ويدرسون بها. من الباكستانيين والهنود والبنغاليين والماليزيين والأندوسيين، وغيرهم من أبناء آسيا وأفريقيا، تجمعهم العقيدة الإسلامية، والإخوة الإسلامية، كما يجمعهم هم الدعوة إلى الإسلام، وجمع المسلمين عليه، وتصحيح أفهامهم له. وحمايتهم من الضياع في خضم هذا المجتمع إذا ترك الطالب المسلم وحده، أو مع صحبة سوء.

وكان بجوار هذا الاتحاد أو من فروعه وثماره: بعض الطلبة المسلمين الذين آثروا أن ينشئوا كيانًا صغيرًا بجوار الكيان الكبير، وهو اتِّحاد الطلبة المسلمين؛ لأن لسان مؤتمرات الاتِّحاد وندواته هو اللغة الإنجليزية. وكثير من هؤلاء الشباب قدموا من بلدانهم جديدًا، ولم يتقنوا اللغة بعد، فلا يستفيدون كثيرًا من مؤتمرات الاتحاد.

فأسس الطلبة الكويتيون في أول الأمر رابطة لهم سمّوها «رابطة الشباب المسلم الكويتي»، ثم رأى الطلبة العرب أن هناك خليجيين كثيريين من غير الكويت، فاقترح أن تُسمَّى رابطة الشباب المسلم الخليجي، واعترض عليهم آخرون بأن هناك طلبة مسلمين عرب من غير الخليج، فالواجب أن يشمل هؤلاء جميعًا. ولذا أطلقوا على هذه المؤسسة الجديدة اسم: «رابطة الشباب المسلم العربي» على أن يكون جزءًا من الاتحاد الأم «اتحاد الطلبة المسلمين».

وكانت هذه الرابطة تعقد مؤتمراتها في الشتاء غالبًا، وتدعو كبار العلماء والدعاة إليها، وكلهم من العرب، أو ممن يتقنون العربية من العجم. وقد دُعيت إليها مرات عدة، وألقيت جملة من المحاضرات، منها هذه المحاضرة: «المحنة في واقع الحركة الإسلامية».

و«المحنة» كلمة معروفة في المحيط الإسلامي، ولا تحتاج إلى «تعريف فني» لها. وهي تعني الامتحان والاختبار والابتلاء لأهل الإيمان، ودعاة الحق بالأذى والشدائد، في أنفسهم وأهليهم وأبدانهم وأموالهم؛ ليختبر الله إيمانهم، وصبرهم، فهو يعاملهم معاملة المختبر، وهو أعلم بهم؛ ليجزيهم على عملهم الذي صدر منهم، لا على ما علمه منهم، كما قال تعالى: {**وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ**} [محمد: 31].

وقال تعالى: {**أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ**} [آل عمران: 142].

ولقد اصطفي الله رسله ﷺ من خيرة خلقه، وأمدهم بوحيه، وعلَّمهم ما لم يكونوا يعلمون؛ ليبلغوا رسالته للناس، مبشرين ومنذرين، ومع هذا لم يعصمهم من الابتلاء بالمحن والشدائد، ولا من الأذى والعذاب صنوفًا وألوانًا من قومهم، ليصقل معادنهم، ويبتلي ما في صدورهم، ويمحص ما في قلوبهم. فما منهم إلا أوذي، وخصوصًا أولي العزم منهم، الذين قال الله لرسوله في شأنهم: {**فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ**} [الأحقاف: 35].

انظر إلى شيخهم نوح ﷺ، الذي لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، ليبلغهم رسالة ربه، وينصح لهم، ويبشرهم وينذرهم، فلم يستجب له إلا أفراد معدودون، حتى امرأته لم تؤمن به، وحتى أحد أبنائه كفر به: {**وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ**} [هود: 40] كما قال القرآن.

أكثر من ثلاثين جيلًا - إذا اعتبرنا الجيل ثلاثين سنة - مرت عليه، وكل جيل أسوأ مما قبله، وهو ﷺ لم يقصر في دعوته، ولم يتوانَ عن التبليغ،

بل نوع الأساليب، ونوع الترغيب والترهيب، ونوع الزمان والبيان من إسرار وإعلان، فلم ينفتح له قلب، ولم تسمع له أذن. كما حكى عن نفسه: {**قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا5 فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيَ إِلَّا فِرَارًا6 وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا7 ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا8 ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا**} [نوح: 5-9].

فلا عجب أن توجه إلى ربه بدعوته بعد (950) سنة فقال: {**رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا26 إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا**} [نوح: 26، 27].

ولخصت سورة القمر موقف نوح وقومه، الذي انتهى بالطوفان الذي طهر الأرض من شرهم، بقوله تعالى: {**كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا وَقَالُواْ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ 9 فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ 10 فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ 11 وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ 12 وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ 13 تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ**} [القمر: 9- 14].

وبعد نوح لقي رسل الله سسست من أقوامهم من التكذيب والاتهام والإيذاء، ما انتهى بانتصار الله تعالى لرسله، وإنزال عقوبته على الذين كذبوهم وآذوهم. كما قال تعالى: {**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ**} [الروم: 47].

وها نحن نرى إبراهيم سسس يُحاج قومه من عبدة الأصنام، فحججهم،

ويبطل شبهاتهم بحججه الدامغة، وكان من حججه العملية: أن حطم أوثانهم بفأسه، وجعلها جذاذًا إلا كبيرًا لهم، لعلهم إليه يرجعون.

فلما عرفوا القصة، وجاءوا بإبراهيم ليحققوا معه بتهمة تحطيم آلهتهم، فسألوه: {**ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ 62 قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ**} [الأنبياء: 62، 63]، فلما لم يجدوا لهم حجة قالوا: {**حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ**} [الأنبياء: 68]، وأوقدوا نارًا عظيمة ليحرقوه بها، وقذفوا به وسط هذه النار، فلم تحرق النار إبراهيم، بل قال الله لها: {**يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ**} [الأنبياء: 69]، ونجّاه الله من النار، ورد كيد القوم في نحرهم.

وبعد إبراهيم أبي الأنبياء جاء أولي العزم من الرسل: موسى سسس، الذي أرسله الله إلى فرعون وقارون وهامان، فقالوا: ساحر كذاب.. وفرعون يمثل الملكية الطاغية المتألهة في الأرض، وقارون يُمثل الرأسمالية المستكبرة الكانزة لمال الله عن عباد الله، قائلًا: {**إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ**} [القصص: 78]، وهامان يمثل الواسطة المتسلقة التي تعيش في خدمة الملك والمال على حساب الشعب.

وقد قال فرعون: {**ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ 26 وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ 27 وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ**} [غافر: 26- 28]، {**وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ 127 قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ**

ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ 128 قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ} [الأعراف: 127- 129].

وحين نصر الله موسى ومَن معه من بني إسرائيل على فرعون وملائهم، وأطبق عليهم البحر، فكانوا من المغرقين: لقي موسى من أذى قومه وتمردهم ما لقي، حتى قالوا له: {**فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ 24 قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ**} [المائدة: 24، 25] يعني بهؤلاء القوم الفاسقين: قومه الذين نجَّاهم الله من فرعون على يديه. مع هذا ناله من أذاهم الكثير ... حتى إن النبي صلى الله عليه وسلم حين تطاول عليه بعض الخارجين عن الأدب وحسن الخلق قال: «**يرحم الله أخي موسى، لقد أُوذي بأكثر من هذا فصبر!**»[1].

وجاء بعد موسى من أولي العزم المسيح عيسى ابن مريم، رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، أرسله الله إلى بني إسرائيل مصدقًا لما بين يديه من التوراة، ومبشرًا برسول يأتي من بعده اسمه أحمد، ولقي من بني إسرائيل وأحبارهم ما لقي من الكيد والأذى والتكذيب والاتهام له ولأمه. وكان يقول لهم: يا أولاد الأفاعي! وكادوا له عند الرومان، وتآمروا على صلبه، وسجَّل ذلك القرآن عليهم: {**وَبِكُفۡرِهِمۡ وَقَوۡلِهِمۡ عَلَىٰ مَرۡيَمَ بُهۡتَٰنًا عَظِيمًا 156 وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا**

(1) متفق عليه: رواه البخاري في «الدعوات» (6336)، ومسلم في «الزكاة» (1062)، وأحمد في «المسند» (3902) عن ابن مسعود.

قَتَلُوهُ يَقِينَۢا 157 بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} [النساء: 156- 158]**.**

وختم أولو العزم - بل ختم النبيون جميعًا - بمحمدٍ صلى الله عليه وسلم الذي خصَّه الله بدعوة عالمية خالدة شاملة، فبُعث للناس أجمعين، أرسله الله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدين كله ولو كره المشركون، ووفق سنن الله كان لا بد أن يُحارَب ويُحارِب، وكانت معاركه مع خصومه على كل مستوى، على الصعيد الأدبي، وعلى الصعيد الاقتصادي، وعلى الصعيد العسكري.

لقد أوذي وأصحابه حتى استشهد منهم مَن استشهد تحت العذاب، وحوصروا حتى أكلوا أوراقَ الشجر، وأخرجوا من ديارهم وأموالهم بغير حقٍّ إلا أن يقولوا: ربنا الله، وقاتلوا وقتلوا، حتى لم يبقَ بيت إلا قدم شهداء.

ونزل القرآن المكي يواسيهم: {**الٓمٓ 1 أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ 2 وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ**} [العنكبوت: 1-3]**.**

كما نزل القرآن المدني يواسيهم، وقد رمتهم العرب عن قوسٍ واحدةٍ، وأمسوا ينامون في السلاح خشية مباغتة الأعداء بالهجوم عليهم.

قال تعالى: {**أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ**} [البقرة: 214]**.**

وبعد محمدٍ صلى الله عليه وسلم تعرض كل مَن تمسك بالحق ودافع عنه إلى الأذى، بل إلى القتل ... حتى إن ثلاثة من الخلفاء الراشدين المهديين ماتوا

مقتولين شهداء عند ربهم! عمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم أجمعين.

والحسين السبط رضي الله عنه مات شهيدًا مقتولًا مظلومًا.

وكل صاحب رسالة بعد ذلك من العلماء والربانيين والأئمة الصادقين، أوذي من أجل رسالته ما أوذي، فلم يهن لهم عزم، ولم تلن لهم قناة، ولم تخمد لهم جذوة، ولم يمت لهم أمل، بل كانوا كما قال الله في أمثالهم: {**فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ**} [آل عمران: 146].

دخل شيخ الإسلام ابن تيمية السجن من أجل تشبثه بأفكاره وما يؤمن به، ودخل كذلك تلميذه الإمام ابن القيم، وقضى ابن تيمية نحبه في السجن.

ولم يحن شيء من ذلك رأسه، أو يفت في عضده، أو يشعره بالأسى على ما أصابه، بل قابل ذلك كله برضا القلب، وسكينة النفس، وقال كلمته الشهيرة: ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري، إن رحتُ فهي معي لا تفارقني، إن حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة(2).

وكذلك كان موقف كل المصلحين والمجددين لهذا الدين، خاضوا لجج المحن، لجة وراء لجة، ومحنة إثر محنة. ومنهم مَن قدَّم عنقه فداء لدعوته، وهو يستحضر قول الصحابي الجليل:

ولست أبالي حين أقتل مسلمًا على أي جنب كان في الله

---

(2) نقل ذلك عنه تلميذه ابن القيم في كتابه «الوابل الصيب» (ص67) ط. دار الكتاب العربي، بيروت، 1985م.

وقدمت الدعوة الإسلامية الحديثة، أو الحركة الإسلامية المعاصرة، قوافل من الشهداء، منهم من أعدم شنقًا، مثل: عبد القادر عودة، وسيد قطب، ومحمد فرغلي، ويوسف طلعت، وإبراهيم الطيب، وعبد العزيز البدري ... ومنهم من اغتيل على يد خصومه، مثل: حسن البنا الذي اغتالته الحكومة بيد رجالها في عهد الملك، وقد حوكموا بعد الثورة ... ومنهم مَن قُتلوا على يد سجانيهم، كما في حادث ليمان طرة الذي قتل فيه بضعة وعشرون سجينًا على يد حراسهم.

ومنهم مَن قُتل تحت سياط التعذيب، مثل: شهداء زنازين العذاب في السجن الحربي.

ومنهم مَن قُتل في معارك غير متكافئة مع خصومهم، فسقط الآلاف شهداء.

وهكذا يظل الصراع محتدمًا بين الحق والباطل في صور شتى، وبأساليب شتى تتغير الوجوه، وتتغير الأسلحة، وتتغير أرض المعركة، ولكنها أبدًا مستمرة لا تتوقف، وإن كانت تهدأ أحيانًا، ولكنه الهدوء الذي يسبق العاصفة، كما يقولون.

وما دام في الأرض خير وشر، وما دام في الناس أخيارًا وأشرارًا، وما دام لكل إنسان ملك يُلهمه، وشيطان يوسوس له، وما دام للناس شهوات تغريهم بالغي، وعقول تهديهم إلى الرشد، فسيظل التدافع قائمًا، والمعركة مشتعلة، والحرب سجالًا، حتى تكون العاقبة للحق ودعاته، وللتقوى وأهلها.

{كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ

فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ} [الرعد: 17]، **{وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا}** [الإسراء: 81].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

القاهرة في: شعبان 1429هـ

أغسطس 2008م

يوسف القرضاوي

بسم الله الرحمن الرحيم

المحنة في واقع الحركة الإسلامية المعاصرة(3)

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وأزكى صلوات الله وتسليماته على معلم الناس الخير، وهادي البشرية للرشد، وقائد الخلق إلى الحق: سيدنا وإمامنا وأسوتنا وحبيبنا محمد، وعلى آله وصحبه، الذين آمنوا به وعزروه ونصروه، واتَّبعوا النور الذي أنزل معه أولئك المفلحون، ورضي الله عمَّن دعا بدعوته، واهتدى بسنته، وجاهد بجهاده إلى يوم الدين.

أحييكم جميعًا أيها الأخوة، وخير ما أحييكم به تحية الإسلام، وتحية الإسلام السلام، فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

حديثي إليكم أيها الأخوة: عن المحنة في واقع الحركة الإسلامية المعاصرة، والمحنة جزء كبير في تاريخ الحركة الإسلامية الحديثة، أصبحت لازمة من لوازمها.

المقصود بالمحنة:

ويُقصد بالمحنة الاضطهاد الجماعي المركز الذي توقعه السلطة على الحركة بمصادرة نشاطها، والتنكيل برجالها. وهذا وقع أول ما وقع في مصر؛ الأم والرائدة في الحركة الإسلامية، وأول ما برز ذلك وتجلى في سنة

---

(3) ألقيت هذه المحاضرة في: رابطة الشباب المسلم العربي بأمريكا الشمالية، وقد فاجأني الأخوة المسئولون في الرابطة بالموضوع المطلوب مني، وليس معي مرجع. ولهذا اعتمدت على الذاكرة.

1948، حينما أعلن الحاكم العسكري في مصر[4] في ذلك الوقت، الذي عادى أبناء وطنه، واقترب من إسرائيل، والذي وقع - بعد ذلك - معاهدة الهدنة «معاهدة رودس[5]» مع إسرائيل، أعلن حلَّ جماعة الإخوان المسلمين في 8 ديسمبر 1948، وبدأت بذلك الاعتقالات، والتعذيبات ... إلى آخر ما حدث، حتى إن مؤسس الحركة، ورجل الدعوة الأول، الإمام حسن البنا، قد اغتيل على يد الحكومة!

ثم حدثت بعدها محن أخرى: محنة عام 1954، ومحنة عام 1965، ومحنة عام 1981، وحدث ذلك أيضًا في بلاد كثيرة، أبرزها في سوريا[6].

---

(4) هو محمود فهمي النقراشي باشا رئيس الحزب السعدي، رئيس وزراء مصر، ووزير الداخلية.

(5) وقعت المعاهدة في فبراير 1949م.

(6) من أبرز محن الإخوان في سوريا: مذبحة أو مجزرة «حماة»، والتي وقعت في 2 فبراير من عام 1982م، وكان سبب هذه المجزرة: قيام حركة الإخوان المسلمين بالعصيان العام، ومعارضة الحكم العلوي المسيطر على البلاد ذي الغالبية السنية. ولكن لم يُكتب لهذه الحركة النجاح، وذلك لضعف إمكانيات الجماعة مقارنة بالجيش الحكومي الذي يمتلك كل مقومات الجيش الحديث. وقد قامت القوات السورية بتطويق مدينة حماة، وقصفها بالمدفعية، ومن ثم اجتياحها عسكريًّا. بلغ عدد ضحايا المجزرة حسب تقدير اللجنة السورية لحقوق الإنسان ما بين 30 و 40 ألف إنسان، غالبيتهم العظمى من المدنيين. وتمت المجزرة بالقتل الفردي والجماعي، وتم دفن الضحايا في مقابر جماعية، وتشير بعض التقارير إلى صعوبة التعرف على جميع الضحايا؛ لأن هناك ما بين 10 آلاف و15 ألف مدني اختفوا منذ وقوع المجزرة، ولا يُعرف أفي الأحياء هم أم في الأموات. وكانت الخطة التي نفَّذها النظام السوري في تدمير حماة أشبه ما تكون بـ «الوأد الجماعي»، حيث حوصرت المدينة من كل الجهات، ثم قصفت بالمدفعية الثقيلة قصفًا عشوائيًّا، تمهيدًا لاقتحامها بالدبابات والآليات، في الوقت الذي تخوض فيه عناصر سرايا الدفاع والوحدات الخاصة حرب الشوارع ضد المواطنين العزل.

أسباب المحنة:

هذا القمع وهذا التنكيل الجماعي ما سببه؟

هل هو شيء طبيعي أو لا؟

إن أي دعوة تدعو إلى منهج حياة، أو نظام حياة يمس أنظمة الحكم، ويمس مصالح الطبقة المتسلطة على المجتمع، لا بد أن تقف في موقف يعرضها لأذى السلطة واضطهادها، فإن لم تكن سلطة فلأذى السادة والكبراء.

شمولية الإسلام عند حسن البنا:

لذلك كان لا بد من هذا الصدام، فقد قامت الدعوة الإسلامية منذ فجرها تدعو إلى الإسلام الشامل، لا تدعو إلى الإسلام التقليدي الذي حرفته عصور الانحطاط عن موضعه، وعن مكانه الحقيقي، أو الإسلام السلبي، إسلام «دع الملك للمالك، واترك الخلق للخالق»، أو «أقام العباد فيما أراد»!

ولكن إلى الإسلام الحي المتحرك، الذي يشمل جوانب الحياة كلها، ويعلن في الناس من أول يوم: أنه «دين ودولة ... عبادة وقيادة ... صلاة وجهاد ... حق وقوة ... ومصحف وسيف»[7].

---

(7) ذكر الإمام حسن البنا هذا كثيرًا في عدد من رسالاته، ومن ذلك قوله: «واذكروا جيدًا أيها الإخوان ... أن الله قد مَنَّ عليكم، ففهمتم الإسلام فهمًا نقيًّا صافيًا، سهلًا شاملًا، كافيًا ووافيًا، يساير العصور ويفي بحاجات الأمم، ويجلب السعادة للناس، بعيدًا عن جمود الجامدين وتحلل الإباحيين، وتعقيد المتفلسفين، لا غلو فيه ولا تفريط، مستمدًّا من كتاب الله وسنة رسوله وسيرة السلف الصالحين، استمدادًا منطبقًا منصفًا، بقلب المؤمن الصادق، وعقل الرياضي الدقيق، وعرفتموه على وجهه: عقيدة وعبادة، ووطن وجنس، وخلق ومادة، وسماحة وقوة، وثقافة وقانون. واعتقدتموه على حقيقته: دين ودولة،

هذا الإسلام الشامل كان شيئًا غريبًا على الناس، فكان المجتمع يعيش في عزلةٍ، في عمى عن الإسلام الشمولي. كانت «معاني القوة» في الإسلام بعيدة عن الناس.

كانت كلمة «الجهاد» لا يكاد الناس يفهمون لها معنى، كانت كلمة الدولة شيئًا غريبًا أيضًا.

الإسلام لا يكون إلا سياسيًّا:

ولهذا بدأ حسن البنا مجدد الإسلام في هذا القرن «القرن الرابع عشر الهجري» ومؤسس كبرى الحركات الإسلامية الحديثة، بدأ يطوف البلاد شرقًا وغربًا يعلم الناس، كان الناس يقولون: إن هؤلاء يريدون أن يدخلوا الدين في السياسة والسياسة في الدين.

فبدأ يُعلمهم أنه لا يوجد شيء اسمه دين وآخر اسمه سياسة بالنسبة للإسلام. هل كان الرسول دينيًّا ومعه رجل سياسي آخر؟ أو كان هو الديني والسياسي معًا؟

كان صلى الله عليه وسلم الإمام في الصلاة ... والقائد في الحرب ... والحاكم في المجتمع.

هل كان الخلفاء - الذين جاءوا من بعده - دينيين أو سياسيين؟

هل عرف الإسلام شيئًا اسمه الدين وشيئًا اسمه السياسة[8]؟

وحكومة وأمة، ومصحف وسيف، وخلافة من الله للمسلمين في أمم الأرض أجمعين. انظر: «مجموعة الرسائل» للإمام الشهيد (ص201).

(8) ناقشنا ذلك في عدد من كتبنا، وأهمها كتابنا «الدين والسياسة»، وخصوصًا الفصل

إنك في الصلاة تقرأ القرآن، فتقرأ آيات الجهاد، وآيات التشريع المدني، مثل: «آية المداينة» {**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ...**} [البقرة: 282]، وآيات الحكم: {**وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ 44... فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ 45... فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ**} [المائدة: 44، 45، 47]، وذلك وأنت في قلب صلاتك تتعبد الله تعالى.

وفي الصلاة هناك «قنوت النوازل»، تستطيع أن تدخله في الصلاة، فتدعو على المستعمرين والظالمين، بعد قيامك من الركوع في الركعة الأخيرة.

وهكذا فعل حسن البنا في معركة المقاومة مع الإنجليز، حيث قال: إن الإسلام شرع لنا «قنوت النوازل» لندعو على أعدائنا، وحيث كنا نحارب الإنجليز فعلينا أن نستعين الله عليهم، وندعو في صلاتنا.

وطلب من أئمة المساجد في أنحاء مصر أن يدعوا على الإنجليز؛ ليُلهب العواطف، وتتحد المشاعر كلها، ويُعَبِّئ الأمة قلبيًّا، وعاطفيًّا، وعقليًّا؛ لمحاربة الإنجليز، بمثل هذا الدعاء: اللهم رب العالمين، وأمان الخائفين، ومذل المتكبرين، وقاسم الجبارين، تقبل دعاءنا، وأجب نداءنا ...

اللهم إنك تعلم أن هؤلاء الغاصبين من البريطانيين قد احتلوا أرضنا، وغصبوا حقَّنا، وطغوا في البلاد، فأكثروا فيها الفساد.

اللهم فرد عنا كيدهم، وفلَّ حدَّهم ... وأزل دولتهم، وأذهب عن أرضك

الثالث «تهمة الإسلام السياسي».

سلطانهم، ولا تدع لهم سبيلًا على أحدٍ من عبادك المؤمنين. آمين[9].

وبدأت المساجد في مصر كلها تدعو بهذا الدعاء.

فهذا إسلام جديد، إسلام يُجند الأمة لمقاومة الاستعمار، وطرد المستعمرين. ليس الإسلام «المستأنس» الذي عرفه الناس من قبل، وهذه الفلسفة الجديدة في الإسلام صدمت أولئك الذين أرادوا أن يقودوا الأمة إلى حيث يُبعدونها عن الإسلام، كانوا يُريدون أن يلقوا في ضمير الأمة تلك الفلسفة النصرانية، فلسفة «دع ما لقيصر لقيصر، وما لله لله».

فعلمهم حسن البنا أن الحياة لا تنقسم بين الله وبين قيصر.

وأن الإنسان لا يشطر شطرين: شطر للدين، وشطر للدولة.

فالإسلام لا يقبل قسمة الحياة، ولا شطر الإنسان، وإنما قيصر وما لقيصر لله رب العالمين: {**لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ**} [البقرة: 284]، {**أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ**} [يونس: 66].

فكان هذا شيئًا جديدًا، صدم أولئك الماكرين الحاكمين.

جاء حسن البنا بإسلام جديد، كان شيئًا جديدًا بالنسبة للناس، لذلك سماه «إسلام الإخوان المسلمين[10]»، ولكنه في الحقيقة إسلام القرآن والسنة،

---

(9) انظر: جريدة «الإخوان المسلمين» اليومية العدد (135).

(10) ذكر الإمام الشهيد هذا في رسالة «المؤتمر الخامس»، وقال تحت هذا العنوان: واسمحوا لي إخواني استخدام هذا التعبير، ولست أعني به أن للإخوان المسلمين إسلامًا جديدًا غير الإسلام الذي جاء به سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم عن ربه، وإنما أعني أن كثيرًا من المسلمين في كثير من العصور خلعوا عن الإسلام نعوتًا وأوصافًا ورسومًا من عند أنفسهم، واستخدموا مرونته وسعته استخدامًا ضارًّا، مع أنها لم تكن إلا للحكمة

الإسلام الذي لم يعرف الصحابة ولا التابعون ولا سلف هذه الأمة غيره، الإسلام الذي لا يقبل التجزئة ولا الشركة: {**قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**} [الأنعام: 162].

إسلام الحاكم أو حكم المسلم:

كان هذا أول شيء قدَّمه حسن البنا، قدم الإسلام شاملًا، وقال: إن الإسلام عقيدة وشريعة، ونظام حكم، ولا بد إمَّا أن يُسلم الحاكم أو يحكم المسلم.

إما أن ينتقل الإيمان إلى قلوب الحاكمين، أو ينتقل الحكم إلى أيدي المؤمنين.

حينما قالوا: أنتم تطلبون الحكم، قال: نحن نريد الحكم الإسلامي، فإذا وجد مَن يحكم بالإسلام حقًّا فنحن جنوده وأنصاره، وإن لم يكن ذلك فعلينا أن نستخلص الحكم الإسلامي من أيدي أولئك العلمانيين الذين لا يحكمون بما أنزل الله، لهذا لا بد أن يصطدم بأنظمة الحكم(11).

السامية، فاختلفوا في معنى الإسلام اختلافًا، وانطبعت للإسلام في نفس أبنائه صور عدة تقرب أو تبعد أو تنطبق على الإسلام الأول الذي مثله رسول الله وأصحابه خير تمثيل. «مجموعة الرسائل» للإمام الشهيد (ص118).

(11) ذكر الإمام البنا ذلك في رسالة «المؤتمر الخامس» حيث قال: الإخوان المسلمون لا يطلبون الحكم لأنفسهم، فإن وجدوا من الأمة مَن يستعد لحمل العبء، وأداء هذه الأمانة، والحكم بمنهاج إسلامي قرآني، فهم جنوده وأنصاره وأعوانه، وأن لم يجدوا فالحكم من منهاجهم، وسيعملون لاستخلاصه من أيدي كل حكومةٍ لا تُنفذ أوامر الله ... وكلمة لا بد أن نقولها في هذا الموقف: هي أن الإخوان المسلمين لم يروا في حكومة من الحكومات التي عاصروها - لا الحكومة القائمة ولا الحكومة السابقة، ولا غيرهما من الحكومات الحزبية - مَن ينهض بهذا العبء، أو مَن يُبدي الاستعداد الصحيح لمناصرة الفكرة الإسلامية، فلتعلم الأمة ذلك، ولتطالب حكامها بحقوقها الإسلامية، وليعمل الإخوان

حسن البنا أرسى المفاهيم ونزل بها إلى أرض الواقع:

ثم من ناحية أخرى لم يقل هذا مجرد كلام فقط، وإنما هو كلام تبعه عمل، فكان يربي أتباعه على معاني الجهاد حقًّا.

نفخ فيهم روح الجهاد من أول يوم قامت فيه الدعوة، ورفعت شعاراتها ودوت سماء مصر هتافاتها:

الله أكبر ولله الحمد، لا إله إلا الله، محمد رسول الله، عليها نحيا، وعليها نموت، وفي سبيلها نجاهد، وحتى نلقى الله.

نغمة جديدة كانت أول ما استرعاني وأنا صبي صغير، هذه الهتافات التي تهز القلوب هزًّا:

الله غايتنا.

والرسول قدوتنا.

والقرآن دستورنا.

والجهاد سبيلنا.

المسلمون. انظر: «مجموعة الرسائل» للإمام الشهيد (ص136)، كما ذكر الإمام البنا هذا للكاتب والأديب إحسان عبد القدوس في حواره الذي نشره في «روزاليوسف»، وجعل عنوانه: «الرجل الذي يتبعه نصف مليون»، وكان سؤال إحسان عبد القدوس: هل تسعون لتولي الوزارة؟ فأجاب الإمام: إننا نؤيد أي وزارة تنفذ برنامجًا قائمًا على الدين الصحيح، سواء أكنا نحن الذين نتولاها بأنفسنا أم كان غيرنا. انظر: «روزاليوسف» العدد الصادر في 12 سبتمبر «أيلول» سنة 1945م.

والموت في سبيل الله أسمى أمانينا[12].

وأناشيد الجهاد:

هـو الحـق يحشـد أجنـاده ويعتـد للموقـف الفاصـل
فصـفوا الكتائـب آسـاده ودكـوا بـه دولـة الباطـل
أخـا الكفـر إمـا تبعـت الهـدى فأصـبحت فينـا الأخ المفتـدى
وإمَّـا جهلـت فـنحن الكمـاة نقاضـي إلـى الـروع مـن هـددا
إذا لأذقنـاك ضـعف الحيـاة وضعف الممات ولـن تنجدا[13]

---

(12) ذكر الإمام البنا هذا الشعار في عدد من رسائله: منها «رسالة إلى الشباب»، وفيها يقول: وسنجاهد في سبيل تحقيق فكرتنا، وسنكافح لها ما حيينا، وسندعو الناس جميعًا إليها، وسنبذل كل شيء في سبيلها، فنحيا بها كرامًا أو نموت كرامًا، وسيكون شعارنا الدائم: الله غايتنا، والرسول زعيمنا، والقرآن دستورنا، والجهاد سبيلنا، والموت في سبيل الله أسمى أمانينا. انظر: «مجموعة الرسائل» للإمام الشهيد (ص176). كما ذكرها كذلك في الرسالة «التعاليم» عند حديثه عن أركان البيعة، وبالتحديد في ركن الثقة، فبعد أن ذكر ثمانية وثلاثين واجبًا من واجبات البيعة قال: أيها الأخ الصادق، هذه مجمل لدعوتك، وبيان موجز لفكرتك، وتستطيع أن تجمع هذه المبادئ في خمس كلمات: «الله غايتنا، والرسول قدوتنا، والقرآن شرعتنا، والجهاد سبيلنا، والشهادة أمنيتنا». انظر: «مجموعة الرسائل» للإمام الشهيد (ص369).

(13) الأبيات للأستاذ عبد الحكيم عابدين، وهو أحد شعراء الدعوة الكبار، ولد في مصر سنة 1396هـ-1914م، التحق بكلية الآداب، واتصل بجماعة الإخوان المسلمين، وصار من أعضائها البارزين وهو لا يزال طالبًا، كتب - وهو في مقتبل شبابه - ديوانه المعروف بـ «بواكير»، تولى منصب السكرتير العام حتى صدر قرار بحل الجماعة سنة 1948م، وتعرض للاعتقال في العهد الملكي، وفي عهد عبد الناصر، ثم غادر مصر، وعاد في عام 1975م، وعمل مع المرشد الثالث عمر التلمساني، وكانت وفاته في القاهرة سنة 1975م. راجع: «الإخوان المسلمون ... أحداث صنعت التاريخ» محمود عبد الحليم، ط. دار الدعوة، الإسكندرية، مصر، ومن أعلام الحركة والدعوة الإسلامية المعاصرة: عبد

معانٍ جديدة، وأناشيد جديدة، حتى شعار الحركة:

مصحف يحوطه سيفان، وتحته كلمة «وأعدوا»، إشارة إلى الآية الكريمة: {**وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ**} [الأنفال: 60].

وكانت المعسكرات لتدريب الشباب على الخشونة وعلى معاني الجهاد، كانت شيئًا جديًا إيجابيًا، لم يكن مجرد كلام يقال، فلما أتيحت الفرصة للجهاد والعمل، وللصدام المسلح مع أعداء الأمة، سارع هذا الشباب يطلبون الجهاد ويلتمسون الشهادة في حرب فلسطين سنة 1948م.

كان الشباب يزدحمون إلى مكاتب التطوع، يريدون أن يكون لهم شرف المشاركة في الجهاد في سبيل الله.

أصدر الإمام الشهيد حسن البنا قرارًا بأن طلاب المرحلة الثانوية لا يؤخذون في التطوع، وأذكر أنه كان لنا أخ زميل في المرحلة الثانوية اسمه «عبد الوهاب البتانوني(14)»، استشهد رحمه الله في فلسطين.

الله العقيل، ط. مكتبة المنار الإسلامية - الكويت 2001م، وأناشيد الدعوة الإسلامية، حسني جرار، وأحمد الجدع، ط. مؤسسة الرسالة - بيروت.

(14) راجع: «ابن القرية والكتاب» (265/1-263)، وهنا أذكر قصة زميلي وأخي وحبيبي عبد الوهاب البتانوني، الذي كان ينام ويصحو على الجهاد في فلسطين، كأنما هو قيس، وهي ليلاه، وكان عليه أن يتخطى العقبات في سبيل تحقيق رغبته المنشودة.

كان عبد الوهاب شابًا تقيًا نقيًا، صافي الروح صفاء البللور، يحلق في الأجواء الروحية، يكاد يطير بلا جناح، وكان أستاذنا البهي الخولي يقول: كلما رأيت عبد الوهاب لحظت دم الشهادة يترقرق في وجهه. وكان يقول عنه: سيدي عبد الوهاب البتانوني. كان أمام عبد الوهاب لتحقيق رغبته في الجهاد بفلسطين عقبتان:

أولاهما: رضا أمه، فهي حريصة عليه، وضنينة بحياته، فقد مات أبوه وخلفه يتيمًا، هو وشقيقه، وأصبح أمانة في عنقها، فكيف تضحي به؟

ووسطنا عبد الوهاب للذهاب إلى والدته، لنحاول إقناعها بذهابه إلى فلسطين، وذهبت أنا وأخي أحمد العسال، وأخي محمد الصفطاوي إلى قريته «كفر هورين»، مركز السنطة، وحدثناها عن أمهات المجاهدين الأبطال في التاريخ الإسلامي، وعن شوق عبد الوهاب للجهاد، وذكرناها بأن الجهاد لا يقدم أجل الإنسان عن موعده، وأن من لم يمت بالسيف مات بغيره، وأن أجل الله إذا جاء لا يؤخر ... إلى آخر هذه المعاني، التي لم تملك الأم الحنون معها إلا أن تقول: ما دامت هذه رغبة عبد الوهاب فلن أقف في وجهه، وأسلم الأمر لله، وأدعو الله أن ينصره وإخوانه ويردهم سالمين غانمين.

واستبشر عبد الوهاب وانفرجت أساريره، وقبل رأس أمه ويدها، وطلب منها أن تدعو له باستمرار.

بقيت «العقبة الثانية» وهي: قرار مكتب الإرشاد بعدم السماح لطلبة الثانوي بالسفر للقتال في فلسطين، إلا باستثناء من المرشد العام، فكان لا بد من رحلة إلى القاهرة لمقابلة المرشد العام لاستثناء عبد الوهاب، وسافرنا نحن الثلاثة: العسال والصفطاوي وأنا، واستطعنا أن نحصل على استثناء من المرشد.

ورجعنا لنبشر عبد الوهاب، وهو لا تكاد تسعه الدنيا من الفرحة، لقد تحققت أمنيته في الذهاب إلى أرض الإسراء والمعراج، أرض أولى القبلتين، وثالث المسجدين العظيمين في الإسلام، ليقاتل أعداء الله، وقتلة الأنبياء: اليهود، وودعناه في يوم مشهود مع عدد من إخوانه المتطوعين من طنطا، وقد ركبوا القطار إلى القاهرة، ومن هناك يرحلون إلى أرض الجهاد، مع إخوانهم من القاهرة والمديريات الأخرى، وكان لقاء الوداع.

وقد أرسل إلي خطابا من أرض الجهاد يقطر حبًا وموة وحنينا إلى النصر، وقد ظللت محتفظًا به مدة من الزمن، ثم ضاع فيما ضاع من أوراق في محن الإخوان.

وقدر الله لعبد الوهاب أن يحقق له الشهادة مع اثنين من إخوانه، طاردهم اليهود حتى لجأوا إلى مصنع للسلاح، للاختباء فيه، ويظهر أنهم رأوا أنهم مقتولون لا محالة، وأن أفضل طريقة: أن يفجروا المصنع على من فيه وما فيه، وإن ضحوا بأنفسهم في سبيل ذلك. وقد أشار إلى ذلك الأستاذ كامل الشريف في كتابه «الإخوان المسلمون في حرب فلسطين»، وقد كان هو أحد القادة في هذه الحرب. كما فصل ذلك الأخ يحيى عبد الحليم فيما كتبه عن «معركة عصلوج». وتحقق ما قاله الشيخ البهي: كلما رأيت عبد الوهاب رأيت دم الشهادة يترقرق في وجهه. رحمه الله ورضي عنه، وجعله شفيعًا لأهله ولنا معهم.

وكان يتوق إلى الجهاد في فلسطين، وكان يبيت يحلم بفلسطين، كأنما هو قيس وهي ليلاه! وكان يتيمًا منذ صغره، وكانت أمه تحبه وتحنو عليه وتحرص عليه، فلم تأذن له بالجهاد، فطلب مني ومن بعض الإخوة منهم الأخ «أحمد العسال» أن نذهب إليها نحدثها عن فضل الجهاد وفضل الاستشهاد ودور الأمهات في عهد السلف الصالح ... لكي تأذن له في الذهاب إلى الجهاد، وفعلًا ذهبنا إلى قريته نحدث هذه الأم حتى اقتنعت وأذنت له، وهي تبكي، فذهب الأخ إلى ميدان الجهاد، وكنا نتردد على أستاذنا الأستاذ: البهي الخولي، وكان الأخ عبد الوهاب يحدثه عن تشوقه إلى الجهاد، فلما ودعنا وذهب إلى فلسطين قال الشيخ البهي: إني كلما رأيت عبد الوهاب رأيت دم الشهادة يترقرق في وجهه.

ذهب المجاهدون «وكانوا يسمونهم المتطوعين» إلى أرض فلسطين، وصنعوا العجائب، وكان هذا الجهاد من أسباب محنتهم، فرأى اليهود ورأى الإنجليز منهم عجبًا.

في إحدى المعارك التي خاضها هؤلاء الشباب وكانوا اثني عشر رجلًا، بعد أن اغتسلوا وتطيبوا واستعدوا للموت، ودخلوا المعركة متوضئين متطهرين، ولما رأى القائد الإنجليزي ما صنع هؤلاء على قلة عددهم، قال: لو كان معي ثلاثة آلاف من هؤلاء لفتحت بهم فلسطين.

أسر الأخ المرحوم الضابط «معروف الحضري» في سجون إسرائيل، فحدثه بعض الضباط الإسرائيليين وقالوا له فيما قالوا: نحن لا نخاف من الجيوش، ولا من الضباط، ولا من أسلحة الجيش، وإنما كل ما يخيفنا هم هؤلاء الناس، جماعة «الله أكبر ولله الحمد».

قال لهم: وما يخيفكم من هؤلاء وهم قليلو التدريب وأسلحتهم بسيطة وضعيفة؟ فقال له: نحن لا نخاف من أسلحتهم ولا من تدريباتهم، وإنما نحن جئنا من بلاد شتى إلى هذه الأرض لنعيش، أما هؤلاء فجاءوا إلى هذه الأرض ليموتوا! فهذا ما كان يخيفهم أيها الإخوة[15].

حكى أخونا الأستاذ كامل الشريف في كتابه «الإخوان المسلمين في حرب فلسطين» أنه كان إذا طلب من أي سرية من السرايا أو مجموعة من المجموعات أن تذهب إلى عمل فدائي فيطلب ثلاثة أو خمسة، يأتيه عشرون أو ثلاثون، ويتقاتلون، كل يريد أن يقدم نفسه، فلا يحل النزاع إلا بأن يقرع بينهم، وكلهم يتسابقون إلى الجنة، ومن لقي منهم الشهادة يبتسم، وهو يقول: وعجلت إليك ربي لترضى.

أصيب أحدهم في ساقه وبترت ساقه أمامه، فنظر إليها مبتسمًا، وهو يردد قول الصحابي الجليل خبيب بن عدي من قبل:

ولست أبالي حين أقتل مسلما ... على أي جنب كان في الله
وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شلو

---

(15) راجع: «الطريق إلى بيت المقدس» د. جمال عبد الهادي (238/2) ط. دار الوفاء- المنصورة.

(16) شعر خبيب جزء من حديث أبي هريرة، وفيه: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة رهط سرية عينا، وأمر عليهم عاصم بن ثابت الأنصاري، جد عاصم بن عمر، فانطلقوا حتى إذا كانوا بالهداة - وهو بين عسفان ومكة- ذكروا لحي من هذيل يقال لهم: بنو لحيان، فنفروا لهم قريبًا من مائتي رجل، كلهم رام، فاقتصوا آثارهم حتى وجدوا مأكلهم تمرًا تزودوه من المدينة، فقالوا: هذا تمر يثرب، فاقتصوا آثارهم، فلما رآهم عاصم وأصحابه لجؤوا إلى فدفد، وأحاط بهم القوم، فقالوا لهم: انزلوا وأعطونا بأيديكم

كانت هذه أيها الإخوة بعض مسببات المحنة.

الفرق بين الإخوان وغيرهم من الجماعات:

ولذلك أخذ هؤلاء الشباب بأسلحتهم من الميدان إلى الاعتقال، وضرب إخوانهم في مصر، فكان هذا الجهاد مما سبب في تفتح الأعين على قوة هذه الدعوة، والإيمان بأنها ليست مجرد كلام أو شعارات، وليست جماعة عادية

ولكم العهد والميثاق، ولا نقتل منكم أحدًا. قال عاصم بن ثابت أمير السرية: أما أنا فوالله لا أنزل اليوم في ذمة كافر، اللهم أخبر عنا نبيك، فرموهم بالنبل فقتلوا عاصمًا في سبعة، فنزل إليهم ثلاثة رهط بالعهد والميثاق، منهم: خبيب الأنصاري، وابن دثنة، ورجل آخر، فلما استمكنوا منهم أطلقوا أوتار قسيهم فأوثقوهم، فقال الرجل الثالث: هذا أول الغدر، والله لا أصحبكم، إن في هؤلاء لأسوة - يريد القتلى - فجرروه وعالجوه على أن يصحبهم فأبى، فقتلوه، فانطلقوا بخبيب وابن دثنة حتى باعوهما بمكة، بعد وقعة بدر، فابتاع خبيبًا بنو الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف، وكان خبيب هو قتل الحارث بن عامر يوم بدر، فلبث خبيب عندهم أسيرًا، فأخبرني عبيد الله بن عياض أن بنت الحارث أخبرته: أنهم حين اجتمعوا استعار منها موسى يستحد بها، فأعارته فأخذ ابنا لي وأنا غافلة حين أتاه، قالت: فوجدته مجلسه على فخذه، والموسى بيده، ففزعت فزعة عرفها خبيب في وجهي فقال: تخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذلك، والله ما رأيت أسيرًا قط خيرًا من خبيب، والله لقد وجدته يومًا يأكل من قطف عنب في يده، وإنه لموثق في الحديد، وما بمكة من ثمر، وكانت تقول: إنه لرزق من الله رزقه خبيبًا، فلما خرجوا من الحرم ليقتلوه في الحل، قال لهم خبيب: ذروني أركع ركعتين، فتركوه ركع ركعتين، ثم قال: لولا أن تظنوا أن ما بي جزع لطولتها، اللهم أحصهم عددا:

ولست أبالي حين أقتل مسلما ... على أي جنب كان في الله مصرعي

وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شلو ممزع

فقتله ابن الحارث، فكان خبيب هو أول من سن الركعتين لكل امرئ مسلم قتل صبرًا.

رواه البخاري في «المغازي» (3989)، وأبو داود في «الجهاد» (2660)، والنسائي في «السنن الكبرى» كتاب «السير» (8788)، وابن حبان في «صحيحه» كتاب «إخبار النبي بمناقب أصحابه» (7039).

مثل: جماعات البر والإحسان، وجماعة «دفن الموتى»، أو جماعة «مولاي صلّ وسلم دائمًا أبدًا»[17] ... إلخ.

وإنما هذه جماعة جديدة، دم جديد، تريد أن تجدد للإسلام شبابه.

تخوف الغرب من حسن البنا ودعوته:

وهناك أمر آخر أيضًا هو: أن القوى العالمية المؤثرة في سياستنا الداخلية وفي منطقتنا الإسلامية بدأت تعرف معنى هذه الجماعة وترصدها، فهناك أجهزة للرصد مفتحة الأعين، ليست غافلة عنا، بدأت ترصد هذه الجماعة، ترصد حسن البنا وهو يجوب مدن مصر وقراها - بعد أن وضعت الحرب العالمية أوزارها - يجند الناس لحرب الإنجليز.

مؤتمرات عقدت في مدن مصر الكبرى، في كل مكان لتعريف الناس بحقيقة المطالب الوطنية، وكانت تتمثل حينذاك في الجلاء ووحدة وادي النيل.

وأشهد أني ما فهمت هذه المطالب وأنا طالب صغير إلا من حسن البنا في ذلك الوقت، وهو يعلم الناس ويحفظهم: قضيتنا، وسيلتنا، دعوتنا ... ويتحدث عن رسائل المقاومة، وهي التعريف، ثم المقاطعة، ثم المجاهدة، وكان يقول: في ليلي كنت أدعو الله - في سجودي - وأقول: اللهم ارزقني الحياة الطيبة، والموتة الطيبة.

وما هي الموتة الطيبة أيها الإخوان؟

---

(17) عرفت جماعات شبه متسولة تذهب إلى المقابر؛ لتقرأ شيئًا من «البردة» للبوصيري، وتردد هذا البيت دائمًا:

مولاي صل وسلم دائمًا أبدًا — على حبيبك خير الخلق كلهم

إنها ليست الموت على فراش وثير، وإنما كما يقول حسن البنا: أن يفصل هذا عن هذا في سبيل الله، وأشار إلى رأسه وجسده.

وقد حقق الله له ما أراد ومات شهيدًا.

فالأجهزة الراصدة، والقوى العالمية المؤثرة في سياسات بلادنا كانت ترصد الحركة، من أجل هذا كله كان لا بد أن تحدث محنة الإخوان المسلمين.

اجتمع في أوائل شهر ديسمبر سنة 1948 في منطقة عسكرية بالقرب من الإسماعيلية، اسمها «فايد»، اجتمع سفراء الدول الثلاث الكبرى «إنجلترا، وأمريكا، وفرنسا»، وقرروا أنه لا بد من التخلص من الإخوان المسلمين، ولا بد من حل تلك الجماعة، وبعثوا بقرارهم وبطلبهم هذا إلى القصر، وإلى الحكومة «حكومة النقراشي»، لتحل جماعة الإخوان المسلمين في 8 ديسمبر سنة 1948م.

المحنة الأولى:

صودرت كل نشاطات الإخوان، وأغلقت دورهم ومراكزهم، وأخذت أموالهم، وعطلت شركاتهم، مثل: شركة المعاملات الإسلامية، وشركة الصحافة الإسلامية، وشركة المناجم والمحاجر ... وغيرها، وأخذت بغير حق، واقتيد العديد من الإخوان إلى المعتقلات، ومنهم الشباب.

كنا في المرحلة الثانوية أخذونا إلى المعتقلات، وأخذوا الجم الغفير من الإخوان، ما عدا حسن البنا، وكان المفروض أن يأخذوا أولًا: مؤسس الحركة وإمام الدعوة، وإنما تركوه في الخارج ليقتلوه.

وهكذا قتل حسن البنا ولقي ربه شهيدًا، كانت هذه هي المحنة الأولى والكبرى، في واقع الحركة الإسلامية الحديثة.

مدرسة «معتقل الطور»:

أخذ الإخوان إلى الأقسام والسجون في المراكز، ثم إلى معتقل الهايكستب بالقرب من القاهرة، ومعتقل الطور في سيناء، ولكنهم حولوا هذا كله إلى مساجد للعبادة وإلى معاهد للتربية.

أذكر أول ما أخذوني أنا وأخ لي رحمه الله الأخ «محمد الدمرداش مراد[18]»، وكنا مختفين في قريته إلى مركز الشرطة في رفتى، وكان معنا

---

(18) ذكرت ذلك بالتفصيل في كتابي «ابن القرية والكتاب»، ومما قلته هناك: اتسعت دائرة الاعتقال لتضم أعدادًا أكثر من الإخوان في أرجاء المملكة المصرية، واعتقل عدد من الإخوان في طنطا، وقال لي بعضهم: الدور عليك لا محالة، وفكرت في الأمر أنا وأخي ورفيقي «محمد الدمرداش مراد»، وتشاورنا في الأمر، وقررنا أن نغيب عن المعهد، ونختفي معًا في قرية الأخ الدمرداش «السملاوية»، فهي قرية صغيرة بعيدة عن أعين الرقباء، ونستطيع أن ندخلها خلسة بحيث لا يرانا أحد، ولا نخبر بوجودنا أحدًا إلا بعض الثقات المأمونين من الإخوة، وهناك نبقى فترة من الزمن حتى تهدأ الأمور، أو يهيئ الله حلًا للمشكلة.

ونفذنا ما اتفقنا عليه بالفعل بعد أن اصطحبنا ملابسنا وكتبنا، لنستذكر فيها ما يفوتنا من دروس، وغاب عنا: أن اختفاءنا معًا سيوجه رجال الأمن إلى البحث عنا في قرية كل منا، وقد علمت أنهم ذهبوا إلى قريتنا «صفط تراب» وسألوا عني، فقالوا لهم: إنه يدرس في طنطا، قالوا: إنه مختف عندكم، واختفاؤه لا يفيده، فأين هو؟ قالوا: الدار أمامكم ... ففتشوا كيف شئتم؟ وفتشوا الدار، وقلبوها رأسًا على عقب، ولم يجدوا فيها شيئًا إلا بعض الأوراق الخاصة بي، أخذوها معهم، ودور الأرياف غاية في البساطة، فليس فيها من الأثاث والأدوات ما يجعل التفتيش فيها عسيرًا، ففي دقائق معدودة تم كل شيء، ولما لم يجدوني في «صفط»، اتجه تفكيرهم إلى «السملاوية»، فبينا كنا نجلس أنا وأخي والدمرداش في «مقعد» في الطابق الثاني، نتدارس في بعض ما صحبنا من الكتب فإذا

طرق شديد عنيف على باب الدار، فأدركنا أنهم رجال الأمن السياسي أو القسم المخصوص - كما كان يسمى في ذلك الحين - وقال الأخ محمد: يمكننا أن نختفي عند الجيران بواسطة «سلالم السطح»، وكانت سطوح منازل القرى في الريف المصري متصلة، فليس هناك أسوار تعزل البيوت بعضها عن بعض، وكانت السطوح مغطاة بالقش والحطب ونحوها، وهو ما يعرضها للخطر عند وجود أي حريق في أحدها، وصعدنا سلم سطح الأخ محمد لننزل من سلم سطح الجيران إلى الطابق الثاني، فالطابق الأرضي، فأدخلتنا جارتهم إحدى الحجرات، ثم أغلقت علينا بالمفتاح، وخرجت من المنزل ذاهبة إلى الحقل، فتحت الحاجة أم الدمرداش الباب بعد الطرق الشديد، لتجد أمامها رجال الأمن، فسألوها: أين ابنك وصديقه؟ فقالت: ابني في معهده في طنطا، اسألوا عنه هناك. ففتشوا الدور الأول من المنزل، فلم يجدوا فيه شيئًا، ثم صعدوا إلى الدور العلوي، فوجدوا أحذيتنا وكتبنا وملابسنا موجودة، فتوجهوا إلى أم الدمرداش، وقالوا لها: تكذبين وأنت امرأة كبيرة؟ هذه آثارهم تدل عليهم، فقولي: أين هما؟ وإلا أخذناك بديلًا عنهما. قالت: لا أعرف عنهما شيئا. واتجه تفكيرهم إلى البيت المجاور، فدخلوه، وفتشوا حجراته تحت وفوق، فلم يجدوا إلا حجرة كانت مغلقة، لم يتمكنوا من دخولها أو فتحها.

وبعد هذه الجولة غادروا القرية مصطحبين معهم المرأة الطيبة الصالحة أم محمد الدمرداش إلى نقطة البوليس في «نهطاي» القرية المجاورة، وبقينا نحن حبيسي الحجرة التي أغلقت علينا، ولا ندري ماذا حدث في الخارج؟ فلما جاءت الجارة صاحبة البيت فتحت علينا، وعرفنا ما حدث، وقلت للأخ محمد: لم يعد أمامنا بد من تسليم أنفسنا، ولا يجوز أن تبقى والدتك ليلة واحدة في الحجز، فلنتوكل على الله، ولنبادر بالذهاب إلى نهطاي، لكيلا ندع حجة في إبقاء الوالدة عندهم. وفعلًا أبلغنا عمدة القرية، وبعث بنا إلى نقطة نهطاي، فسلمنا أنفسنا، وأفرجوا عن الحاجة رحمه الله ب.

وبعد أن سلمنا أنفسنا إلى النقطة أرسلت بنا إلى «مركز زفتى» ليتولى أمرنا، ويرسل بنا إلى طنطا «عاصمة المديرية»، وكان اليوم يوم خميس، وقد وصلنا إلى مركز زفتى في المساء، فلم يكن مأمور المركز ولا نائبه ولا أحد المسئولين موجودًا، ما عدا «الضابط النوبتجي» الذي سلمنا إلى جاويش المركز ليضعنا في الحجز، حتى صباح يوم السبت؛ لنسلم إلى طنطا.

ودخلنا حجز المركز؛ لنجد فيه أكثر من أربعين شخصًا، معظمهم ليسوا من أهل الجريمة، بل من الفلاحين الذين ارتكبوا مخالفات تتعلق بالزراعة أو بالري أو نحو ذلك، وجاء وقت

العشاء، فأذنا في الحجز، وأقمنا الصلاة، وطلبنا منهم أن يصلوا معنا، وكان عدد منهم من أهل الصلاة، فصلوا معنا، وقد أممتهم وقرأت بهم قراءة طويلة خاشعة تأثر الناس بها، وسألونا عن تهمتنا فأجبناهم بقدر ما يفهمون، واغتنمناها فرصة لنحدثهم عن الدعوة، وقد كان يوسف سسس في سجنه يبلغ دعوته إلى من حوله من السجناء كما حكى الله عنه في قوله: {**يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ**} [يوسف: 39].

ونمنا بعض ساعات في هذه الحجرة الواسعة - أو العنبر - مع الزحام والصخب، ثم استيقظنا قبل الفجر لنتوضأ ونستعد لصلاة الفجر، وبعد صلاة الفجر ألقيت عليهم موعظة قصيرة، ثم بدأنا أنا والأخ الدمرداش نقرأ «المأثورات»، وهي جملة من الأدعية المأثورة جمعها الأستاذ البنا، وحث إخوانه أن يذكروا الله بتلاوتها في الصباح والمساء، كما قال تعالى: {**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا 41 وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا**} [الأحزاب: 41، 42]، وكنا نقرؤها نحن الاثنان فقط، حتى جاءت بعض الأذكار التي يمكن أن نشركهم معنا فيها، مثل: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير»، وهي تقال عشر مرات، فرددوها معنا.

وكذلك الباقيات الصالحات من الكلمات الأربع: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر»، وهذه تردد مائة مرة، فرددها الجميع معنا بصوت جماعي كان يهز أركان حجز المركز، وقد أحسن بذلك جاويش المركز، وفتح باب الحجز، فسمع هذا الدوي الهائل بالذكر، فقال: يا أولاد الإيه، أنتم خليتوها جامع؟!

وفي عصر هذا اليوم - يوم الجمعة- فوجئنا بالنداء علينا: أن هيا معنا، فقد طلبوكم في طنطا... ثم أدخلنا حجز قسم أول طنطا، مع من فيه من المجرمين والمتهمين أيامًا قليلة، ثم نقلنا إلى سجن خاص بنا داخل القسم نفسه، ووجدنا فيه بعض الإخوان قد سبقونا إليه، بعضهم من مدينة طنطا، وبعضهم من كفر الزيات، ومن بسيون، ومن شربين ... كان منهم الأستاذ جمال الدين فكيه الإخواني القديم في طنطا، والأستاذ حسني الزمزمي القانوني، والمهندس شفيق أبو باشا مهندي الري في كفر الزيات، وحكمت بكير المهندس في كفر الزيات أيضًا، وإبراهيم الباجوري من بسيون، والحاج محمود عبيه من شربين، وكانت تتبع الغربية، ولحق بنا الإخوان: أحمد العسال، ومصباح محمد عبده من طلبة المعهد ... وآخرون لا أذكرهم.

وقد مكثنا في هذا السجن الطنطاوي نحو أربعين يومًا، حتى نودي علينا يومًا بأن نتأهب للرحيل إلى القاهرة، لننضم إلى سائر إخواننا هناك. انظر: «ابن القرية والكتاب»

عدد من الناس الذين أخذوا في مخالفات شتى، وجئنا صلينا بهم الفجر، وقلنا لهم: الإنسان المبتلى يجب أن يتضرع إلى الله، وكان منهم من يصلي ومن لا يصلي، وظللنا معهم حتى صلوا معنا الفجر، ثم جلسنا نقرأ المأثورات، ولم يكونوا يعرفون هذه المأثورات، وأخذنا نقرأ الأدعية التي يستحب أن يحفظها كل مسلم، أو يحفظ شيئًا منها على الأقل، فقلنا لهم: قولوا معنا: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر»، وكنا حوالي أربعين شخصًا.

وجاء العساكر فذهلوا وقالوا: «هل قلبتم الحجز إلى مسجد يا أولاد الـ ...».

وانتقلنا بعدها إلى سجن الحجز في قسم طنطا، فحبسونا مع المجرمين، وكان هذا سببًا لهداية كثير منهم، وبعضهم دخل معنا في الدعوة، وأصبح من «فتوات» الدعوة - بفضل الله تتت.

فحيثما حل الأخ المسلم في مكان قلبه إلى مكان للطاعة والعبادة وإعلاء كلمة الله تتت.

ولما ذهبنا إلى معتقل الطور حوله الإخوة إلى جامع للعبادة، وجامعة للعلم، وناد للتدريب، وملتقى للتعارف.

فقبل الفجر يقوم الإخوة إلى الصلاة في جوف الليل: {**تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ**} [السجدة: 16].

وكان معنا أخ ندي الصوت، يمر بين العنابر ينادي في السحر:

يا نائما مستغرقا في النوم   قم فاذكر الحي الذي لا ينام

(338/1)، وما بعدها.

مولاك يدعوك لذكره وأنت مشغول بطيب المنام

فنقوم نعبد الله، ونقوم الليل، ونتلوا القرآن، وتسمع أمام كل عنبر دويًا بالقرآن كدوي النحل، حتى يؤذن المؤذن لصلاة الفجر، ونجتمع في المسجد، الذي هو أرض فضاء محاطة ببعض الحجارة، لنصلي وراء إمام يتلو القرآن بصوته الندي، هو الداعية الإسلامي الكبير الشيخ محمد الغزالي رحمه الله ، الذي كان يقنت قنوت النوازل، وخصوصًا في الصلوات الجهرية، ويدعو بدعاء موجز، ولكنه مؤثر، فيقول: اللهم افكك بقوتك أسرنا، وأجبر برحمتك كسرنا، وتول بغايتك أمرنا، اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا، اللهم عليك بالظالمين. ونحن نقول وراءه: آمين.

وتحول المعتقل إلى مخيم أو معسكر، ولذلك كان بعض الإخوة يقول: إن معتقل الطور هو المخيم الدائم للإخوان المسلمين سنة 1948. السفر والمصاريف والنفقات والتكاليف على حساب الحكومة المصرية!!

وسجلت ذلك في القصيدة النونية، التي ألقيتها في ميدان السيدة زينب بالقاهرة، بمناسبة المولد النبوي، بعد خروجنا من المعتقل، وفيها قلت:

قالوا: إلى السجن، قلنا: شعبة ليجمعونا بها في الله إخوانا
قالوا: إلى الطور، قلنا: الطور فيه نقرر ما يخشاه أعدانا!
فهو المصلى نزكي فيه أنفسنا وهو المصيف نقوي فيه أبدانا
معسكر صاغنا جندًا لمعركة ومعهد زادنا للحق تبيانا
من حرموا الجمع منا فوق أربعة ضموا الألوف بغاب الطور

انظروا كيف يعمي الله بصائرهم، أصدروا قانونًا: أي خمسة من الإخوان

يجتمعون في أي بيت من البيوت يعتبر هذا مخالفًا للقانون، ويؤخذون للاعتقال، ثم يأخذون هذه الخمسات المختلفة؛ لتوضع ألوفًا في مكانٍ واحدٍ.

من حرموا الجمع منا فوق   ضموا الألوف بغاب الطور
راموه منفى وتضييقا فكان لنا   بنعمة الحب والإيمان بستانا!
هذا هو الطور شاءوا أن نذوب   وشاء ربك أن نزداد إيمانا!(19)

من فوائد المحنة:

كان للمعتقل أيها الإخوة فوائد، ومن هذه الفوائد:

1- صقل الإخوان:

هذا ما حدث بالفعل، فقد تعلمنا وتربينا وتعارفنا وتآلفنا عام كامل نرى فيه إخوة يلتقون في الصباح والمساء، وفي الصلاة، وعلى الطعام، وفي الجلسات والندوات والدروس.

فكانت عملية صهر وتقوية، وصقل لمعادن النفوس، وهذه كلها من فوائد المحنة: {**وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ**} [آل عمران: 154].

فالمحن ترد الإنسان إلى الله، فينكسر قلبه إذا شعر بالحاجة إلى الله.

لعل ساعات العافية تنسي الإنسان ربه، ولكن ساعات الشدة تذكره بربه عز وجل ، كنا في حاجة لأن نضع أيدينا في يد الله عع، وأن ندعوه

---

(19) انظر: «نفحات ولفحات» (ص41)، وللمزيد راجع: كتابنا «ابن القرية والكتاب» (358/1) وما بعدها.

متضرعين إليه، فنشعر بحلاوة الإيمان، ونتذوق لذة الطاعة، وكان هذا من فضل الله عز وجل ، فكانت هذه التربية الإيمانية والسلوكية من ثمرات المحنة، كانت من مقومات وأساسيات التربية المتكاملة، التي تنشدها الدعوة، فقد ربت الإخوان وصهرتهم وصقلتهم صقلًا عظيمًا، والحمد لله رب العالمين، وهذه ثمرة من ثمرات المحنة.

2- تمييز الصف:

ومن ثمرات المحنة: التمييز للصف، فالصف أحيانًا يدخله من ليس أهلًا لحمل الدعوة، يدخله المنافقون، والطامعون، والذين يريدونها مظهرًا لا مخبرًا.

فهناك أناس - كما قال حسن البنا رضي الله عنه - يحملون الدعوة، وأناس تحملهم الدعوة، هناك من يحمل الدعوة فكرة وعقيدة وخلقًا ورسالة، وآخرون تحملهم الدعوة عبئًا فوق ظهرها.

هذا الصنف ستفرزه المحنة، فهي تنفي خبثها كما ينفي الكير خبث الحديد، ستظهر هذا الصنف لأنه كان يريدها غنيمة باردة، وكان يريدها وردة بلا شوك، أو لقمة سائغة، وهيهات هيهات.

قال تعالى: {**أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ**} [البقرة: 214]، يقولون مستبطئين النصر: {**مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ**}، مستهم البأساء في الأموال، والضراء والآلام في الأبدان، والزلزلة في النفوس، إلى أن يقول الرسول والمسلمون: متى نصر الله؟

وهؤلاء لم يكونوا يظنون ذلك، هم من الصنف الذين يعبدون الله على حرف، كما قال تعالى: {**وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ**} [الحج: 11].

والقرآن يقول بعد غزوة أحد: {**مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ**} [آل عمران: 179]، يطرد الخبيث ويبقى الطيب، وهو الذي يقوم بالدعوة، وتقوم به الدعوة.

أما الذين إذا أوذوا في الله جعلوا فتنة الناس كعذاب الله، كما جاء في سورة العنكبوت: {**وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِۖ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ**} [العنكبوت: 10] فلا خير في هذا الصنف.

3- تلاحم الصف:

وإذا كان من مزايا المحنة: أنها تنفي هذا الصنف، وتطهر الجماعة من خبثه، فهي لها أثر في الفرد: التطهير والتربية كما جاء في الحديث: «**مثل المؤمن يصيبه البلاء كمثل الحديدة تدخل النار فيذهب خبثها ويبقى طيبها**»[20].

---

(20) لم أعثر عليه، ولكنه عند الحاكم بلفظ: «**إنما مثل العبد المؤمن حين يصيبه الرعد والحمى كمثل الحديدة، تدخل النار فيذهب خبثها، ويبقى طيبها**»، وقال: هذا حديث

ولها أثر في الجماعة: التمييز والتصفية: {حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ} [آل عمران: 179]، ومن ناحية أخرى تزيد التلاحم بين أفراد الصف، فالمحنة تجعل الصف متلاحمًا سيعرف كل منهم أخاه، فيشد عضده بعضد أخيه، كما قال القائل:

جزى الله الشدائد كل خير   عرفت بها عدوي من صديقي

وكما قال الإمام - كرم الله وجهه:

ولا خير في ود امرئ متلون   إذا الريح مالت مال حيث تميل
جواد إذا استغنيت عن أخذ ماله   وعند زوال المال عنك بخيل
فما أكثر الإخوان حين تعدهم   ولكنهم في النائبات قليل[21]

وهذا القليل هو المهم الذي يتلاحم بعضه مع بعض، وكان من كلمات جمال الدين الأفغاني رحمه الله : «بالضغط والتضييق تلتئم الأجزاء المبعثرة»، فتزداد كثافة الكتلة المؤمنة، فكان الضغط والتضييق على الحركة سببًا في تكتلها، وتلاحم أفرادها، وتآلفهم، وتعارفهم، بحيث أصبحوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا، وقد أشار القرآن الكريم إلى تلاحم المؤمنين عند المعركة، وتشبث بعضهم ببعض، في قوله تعالى: {إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ} [الصف: 4].

صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. والذي عندي أنهما تركاه لتفرد عبد الحميد عن أبيه بالرواية، وصحح الذهبي إسناده أيضًا (145/1).

(21) تنسب لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، وذكر صاحب «الوافي في الوفيات» أن هذه الأبيات لعثمان بن عمر بن ناصر كمال الدين، أبو عمرو الأنصاري العدل، المعروف بنائب الحسبة بدمشق، كان عدلًا مرضيًا ثقة، توفي سنة 687هـ بدمشق. «الوافي في الوفيات» (ص2842).

وهذا ما لمسه الناس في أبناء هذه الحركة، الأخوة في الله التي زادتها المحن توثقًا وتأكدًا، وصف بعضهم[22] الإخوان في مصر قال: هؤلاء هم الجماعة الذين بلغوا من الترابط حدًّا بحيث إذا عطس أحدهم في الإسكندرية قال له من في أسوان: يرحمكم الله[23].

إنهم على قلب رجل واحد، ربط بينهم الإيمان والأخوة، وزادت هذه الرابطة بالمحنة، وكان هذا من فضل الله عز وجل .

محنة لم تزد الإخوان إلا صلابة:

وخرج الإخوة من المحنة سنة 1949م، خرجوا للساحة، وظن الناس أن هذه المحنة ستثني عزائمهم، وستثبط من هممهم، وإذا بهم يفاجئون الناس بأنها زادتهم قوة على قوة، كالذهب يدخل النار فلا يزداد إلا لمعانًا وصفاء: {**وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا**} [الأحزاب: 22]، {**ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ**} [آل عمران: 173].

لا زلت أذكر يوم خرجت من المعتقل في الطور، وذهبنا إلى طنطا، وأخذوا علينا في قسم الشرطة تعهدًا شكليًّا بألا ننشط، ولا نشتغل بالدعوة، ولكن هيهات.

---

(22) القائل هو الكاتب: إحسان عبد القدوس.

(23) راجع مقالة الكاتب إحسان عبد القدوس في مجلة «روزاليوسف» العدد الصادر في 12 سبتمبر «أيلول» سنة 1945م.

وحين ذهبنا إلى قريتنا، وهناك جاء الناس يسلمون علي، ويهنئونني بالعودة، وسلامة الوصول، جلست أحدثهم عن الإخوان، وماذا صنعوا، وكيف حولوا المعتقل إلى مسجد ومدرسة، فكانوا يذهلون، وكثير منهم كان يستأذن بسرعة ويخرج، ويقول: ما زال يتحدث في تلك الأشياء، فالناس كانوا يظنون أننا لو خرجنا من المعتقلات فلن نفتح فمنا؛ لأننا تلقينا درسًا قاسيًا، ولكنهم فوجئوا بأننا ازددنا قوةً على قوة، والحمد لله[24].

أخصب فترات الدعوة:

وأذكر أن أخصب الفترات التي مرت في حياة الحركة الإسلامية في مصر هي: الفترة بعد خروجنا من المعتقل عام 1949م، إلى عودة الجماعة عودة رسمية.

كنا نعمل بغير لافتة، بغير دور ولا مراكز رسمية، نلتقي بالشباب في المسجد، وفي الدور والحلقات، نعلمهم ونتحدث إليهم، ونعطيهم رسائل الإخوان، ونربي، وننشر الدعوة.

ودخل في هذه الفترة آلاف، وعشرات الآلاف من خيرة الشباب الذين ثبتوا بعد ذلك، وصبروا وصابروا ورابطوا، والحمد لله كان هذا من أثر المحنة.

بعد رجوع الإخوان رسميًّا إلى مراكزهم ودورهم، وانتشرت الدعوة في ذلك الوقت «الخمسينيات» انتشارًا كبيرًا، وقامت بدورها بحركة الجهاد ضد الإنجليز في معارك القناة، وذهب الشباب يقاتل الإنجليز، واستشهد منهم من

---

(24) راجع ذلك بالتفصيل في كتابنا «ابن القرية والكتاب» (203/2).

استشهد، من أمثال: عمر شاهين، والمنيسي ... وغيرهم[25].

كل هذا، وكانت القوى الراصدة غير غافلة عنها، وكانت الدعوة تنتشر انتشارًا عجيبًا جدًّا.

كنا نقول: إن الدعوة تسبقنا، لا نستطيع أن نلحقها، كلما سابقناها سبقتنا، كان يمكن أن يقوم في مصر انقلاب سلمي إسلامي، على أساس القاعدة العريضة التي بدأت تعتنق الدعوة الإسلامية، وتؤمن بفكرة الحركة الإسلامية، ولكن كان هناك بالمرصاد من يعمل لرصد العمل الإسلامي.

أذكر ونحن طلاب في كلية أصول الدين بالأزهر أن الكلية أصبحت معقلًا لدعوة الإخوان، وكانت الدعوة تؤثر على كل عنصر حي من الطلاب، بل كانت تؤثر على الشيوخ والأساتذة، فكان أكثرهم متعاطفين معها، وكان هذا شأن الكليات الأخرى طلابًا وأساتذة، وأوشك الأزهر أن يكون قلعة للإخوان المسلمين.

بيد أن التاريخ اتخذ مسارًا آخر حين قامت ثورة 23 يوليو متحالفة في أول أمرها مع الإخوان، ثم سرعان ما انقضت عليها، وكان ما كان من صراع دامٍ طويلٍ، أدخل الجماعة في محنة بعد محنة، ولكنها كانت أشد وأقصى من محنة عهد الملكية، بل إن محن عهد الملكية تعتبر روحًا وريحانًا بالنسبة لمحن الثورة، وما لاقى فيها الإخوان من أهوال، وما سقط فيها من شهداء،

---

(25) للمزيد راجع: «الإخوان المسلمون ... أحداث صنعت التاريخ» للأستاذ: محمود عبد الحليم.

ولهذا حديث يطول، عسى الله تعالى أن يتيح فرصة الحديث عنها[26].

كل ما أذكره هنا أن الأستاذ حسن الهضيبي المرشد الثاني للإخوان كان كلما سمع الإخوان يتحدثون عن المحنة في عهد الملك فاروق، ويكررون الحديث عما قاسوه في تلك الأيام، فيقول لهم: كفوا عن ذلك، فلعل ما ينتظركم أشد وأقسى.

وهذا ما كان، فقد جاءت محنة 1954 الأولى ثم الثانية، وفيها أُعدم مَن أُعدم وعُذِّب مَن عُذِّب، واستشهد مَن استشهد، تحت سياط التعذيب في السجن الحربي الشهير، وفيها أنشأت قصيدتي «النونية» الشهيرة، وفيها الأبيات التي تغنى بها شباب الدعوة في أقطار شتى:

تالله ما الطغيان يهزم دعوة   يومًا وفي التاريخ بر يميني
ضع في يدي القيد ألهب   بالسوط ضع عنقي على
لن تستطيع حصار فكري   أو نزع إيماني ونور يقيني
فالنور في قلبي ... وقلبي في   ربي ... وربي ناصري
سأعيش معتصمًا بحبل عقيدتي   وأموت مبتسمًا ليحيا ديني[27]

فأنست هذه المحنة بأهوالها كل ما سبقها، ثم جاءت بعدها سنة 1965 محنة الشهيد سيد قطب وإخوانه، فأنست بأهوالها مآسي محنة 1954، وصدقت نبوءة الهضيبي الصابر المصابر رحمه الله .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

---

(26) راجع هذا بالتفصيل في مذكراتنا «ابن القرية والكتاب».
(27) انظر: «نفحات ولفحات» (ص65).

* * *